الغاية والطريق..

قصة جديدة

بقلم رئيف خوري

كان ذلك منذ عشرين سنة على التقريب .

وكان هذا أول يوم من ايامه في شركة البترول أو الشركة ، باختصار ، كما يدعوها الناس جميعاً .

« اخرج من هذا الوكر : المدرسة. لقد نبت ريشك فطر في فضاء هذا العالم ، واختبر قوة جناحيك » . هكذا قالت له يومئذ اسرته .

فطلق الدراسة ورغبته فيها ملحة، وذكاؤه عطش ، ليشغل وظيفة في الشركة بثلاثين ليرة لبنانية سورية في ذلك الحين . وقد سلمه مديره في الصباح دفتراً ضخماً سميناً ، ملؤه الارقـــام ، وشرح له ما عليه ان يصنع به ، فاذا وظيفته حاسب من حاسبي الشركة .

تكدر فائق ولكنه ارسب كدره الى قرارة نفسه . ارقام ! حسابات ! ما له وللحسابات والارقام ؟ انه يحب الشعر، بل هو شاعر قوي الخيال، وثابه، تدغدغ ذهنه الصور الحسان ، وان كان لا يزال مقصراً عن جلوها في الثوب الذي يليق بها من اللفظ والوزن . ان قلبه ليتفتح ابتهاجاً حين تبتسم له فتاة الجيران كما يتفتح الزهر ، مثلاً، تحت ندى الاسحار . لقد لمحها مرة في فستان ليلكي ، وراء زجاج النافذة وهي مرسلة الشعر . فاشتهى ان يغنيها قصيدة ، ان يقول لها : «ان وجهك كالقمر ، وشعرك كخيوط نسلت من الليل ، وأما فستانك فمقصوص من قماشة الفلك الازرق . وافيني الى الغـــابة قبيل الغروب، حين تعقد الشمس أشعتها كأشرطة الحرير الناعمة، بغصون الاشجار. لاقيني فنقعد هناك، حتى تنعس الزهور البرية على قدميك متثائبة عن عطورها...»

اشتهى ان يقول لها ذلك في شعره ، إلا ان الوزن لم يطاوعه واللفظ لم يؤاته . فهو غارق الفكر يكويه هذا العذاب الذي يكوي الفنـــان اذا عصاه التعبير عما في دخيلة روحه — اذا اعياه اطلاق المجرى للفيض السخي الذي ينبع من غور نفسه .

كم كان فائق يتوق ان يظل طليقاً غير مقيد ، يلاق إله الشعر حتى يرق له ويغدق عليه .

ولكن ها هو الآن في مكتب الشركة ، مكباً على الدفتر الضخم امامه ، يكاد يمس ورقه أرنبة انفه ، والارقام تهتز في مواضعها امام نظره المتعب ، وتزحف وتتراقص ... ارقام لا تحصى، متراكبة كحلقات السلسلة ، كأسنان العمود الفقري في افعى ، او كالكراديس المتراصة من نمال تدخل وتخرج من اوكارها . والقلم في يده قد كل من الدبيب على القرطاس ، ودماغه قد خدر من هذا التوليد العقيم للارقام بعضها من بعض جمعاً وطرحاً وضرباً وقسمة!

«ان الآلة من جماد لتستطيع وحدها ان لا تسأم هذه الارقام النهار بطوله . وأرى دماغي سيتحول في قريب الى آلة . »

ولم يكد نهـــار العمل ينتهي ، حتى اندفع فائق من مقعده وهبط الدرج بقامته النحيلة في رفق وتؤدة ريثما تكون اعضاؤه قد لانت وطاعت ، وريثما يكون دمه قد توزع في بدنه التوزع الطبيعي ، لأن معظمه كان قد احتشد في عروق اذنيه وانصب على دماغه . فلما انحدر الى اسفل الدرج وواجه الباب المفتوح على الشارع ، اتسع منخراه اذ عب الهواء عباً عميقاً . وجس صدغيه بأصبعين من اصابعه فوجد لهما نقفاً سريعاً . ثم مر بكفه على جبهته يريد ان يمسح عنها ما عاق بها من التجاعيد في نهاره .

ومشى الى البحر يرفه عن نفسه المكدودة ، ويستلهم الشعر (انه لم ينس الشعر بعد !) فرجع الى بيته وهو موقن ان دماغاً عصرته الارقام لا يدر شعراً ، ودار في خاطره ان فتاة الجيران عليها ان تنتظر مدة قبل ان تسمع منه قصيدته فيها .

— كيف كان الشغل اليوم ؟ سألته عمته ، وكانت اجسر اهل البيت على سؤاله عن كل صغير وكبير من شؤونه . وكان هو صريحاً معها ، يستكين اليها ويطمئن ، ويعابثها كثيراً ويلمس فيها طيبة البقرة وسذاجتها ، ويعجب للشبه القوي بينها وبين البقرة في ضخامة رأسها وبحلقة عينيها. انتظرت منه ان يجلس اليها ، ان يحاذيها حبل الحديث الطويل كعادته ، ولكنه اكتفى بان اجابها : « ماشي الحال ». ورجا منها ان تتركه ليستريح قبل العشاء. فرافقته بعينين دهشتين مستفهمتين ، وهو يمر امامها ، كما تنظر البقرة الى صاحبها حين يجتاز لا يسقيها ولا يلقي لها شيئاً من علف ، ولا يمـــد حتى يده يحك ما تحت ذقنها .

ودخلت عليه عمته بعد قليل ، فرأت ذراعيه مفتوحتين على مداهما وشعره الاسود مسبلاً على المخدة البيضاء وكتابه مطروحاً على صدره فوجمت لحظة تتأمل قسماته على شعاع المصباح . ثم رفعت الكتاب في حذر واطفأت الضوء وخرجت على اطراف اصابعها موسوسة مغمومة .

★

تعاقبت الاشهر وفائق في كل يوم (عدا الاحد الذي سماه يوم الهدنة) يسرع في الساعة الثامنة صباحاً او قبلها بقليل تفادياً من غضب المدير، فلا يخرج في غير ميعاد الغداء مقدار ساعة ونصف الساعة يبلع فيها لقمات تحدث له سوء هضم اكثر من المتعة والتغذية ، ثم لا يفرغ إلا الساعة الرابعة او بعدها من عمله الذي اصبح يسميه حرباً مع الارقام لا هدنة فيها الا هدنة الاحد التي يفسدها هم الاثنين .

ارقام ، ارقام ، محتشدة عليه كحب رمال الصحراء ، ليست تعني له البتة شيئـــاً سوى ان عليه ان يجمعها او يطرحها او يضربها او يقسمها بحركة آلية مطردة . وايام تتلاحق ، شمس تغيب واخرى تبزغ ، عـــلى وتيرة ، وما من جديد او لذيذ . بلى ، في نهاية كل ثلاثين يوماً كان يتسلم غلافاً فيه ثلاثون ليرة

قصة الشهر

لبنانية سورية، ثلاثون ليرة دفع عوضها من حدة دماغه وبذل من نور عينيه.

« ان الحياة على هذا المنوال لا طعم لها » قال له احد اصحابه : « يجب ان تدخن . دخن . هـــذا يساعد اعصابك . ولا بأس بكأس في السهرة تحي به نشاطك . »

وهكذا اصبح فائق اذا اكب على دفتره علت سحائب من لفائف التبغ ظلات رأسه طول النهار . فاذا خرج من عمله توجه تواً الى احدى الخمارات فتناول كأساً او كأسين حاول عبثاً ان يغرق بها تعب النهار .

في صباح يوم اسرع فائق الى مكتب الشركة ، ولا علم له بما ينتظره من مفاجأة . ولو كان له بها علم لطار فرحاً لأنه لا يتوق الى امنية كما يتوق الى فراق هذا الدفتر المحشو ارقاماً والذي يكاد يتقيأ الارقام بين يديه .

قال له مديره لما جاوز عتبة المكتب:

—تذهب اليوم الى المستودعات فتسلم عملاء الشركة البنزين والزيت والكاز، وتقيد ما يتسلمه كل عميل . وسيكون شغالك هناك وقتياً على الاقل ، لأن صاحب الوظيفة قد طرد منها . وهناك حمالون ينقلون صفائح البترول عـــلى ظهورهم في صناديق خشبية من المستودعات الى الطريق العام حيث يتسلم العملاء بضائعهم ، فقيد بدقة عدد الصناديق التي ينقلها كل حمال . . . وكن اميناً .

لماذا قال له المدير : وكن اميناً ؟ ازاه يرتاب في امانته ؟

مشى فائق الى مستودعات الشركة ولم تكن بعيدة جداً — في ضاحية من بيروت على الشاطىء صوب الجبل . والحيرة مستولية عليه من جراء الكلمة التي ختم بها مديره حديثه معه... رأى سوراً سميكاً من الاسمنت يحيط بمكان المستودعات ، وأبنية وبراميل حديدية جبارة . ورأى باباً من الاسلاك الثخينة المشبكة مفتوحاً على مصراعيه ، قد صف امامه عدد عظيم من سيارات الشحن والطنابر. فولج فيه ، ليستقبل رائحة حادة من البترول تخالط اجزاء الهواء . ولقي على الطريق القصير الذي يؤدي من المستودعات الى الطريق العام ، صفاً من الحمالين في خرق بالية، وحبالهم على اكتاف شبه عارية ، ينتظرون. فكل من كان قاعداً منهم وقف له وقوفاً فوريا آلياً كأنما بكبسة زر . ثم تبعه الجميع على الاثر صامتين ولا صمت الساعين الى مدفن . ثم لقي حراس المستودعات فدفع اليه رئيسهم بالمفاتيح . والتف عليه معاونوه والعشرات من عملاء الشركة الذين بكروا يترقبون قدومه .

بعد ربع ساعة، نشطت حركة العمل في المستودعات آخذة مجراها المعتاد.

في اليوم الاول لم يلحظ فائق شيئا . على انه كان لا يزال يفكر في تلك الكلمة من مديره. فلما انصرف آخر النهار خطر له خاطر جديد ، وهو ان المخلوق الذي شغل الوظيفة قبله كان متهما في امانته .

في اليوم التالي ، لحظ فائق ان معاونيه كثيرو التبجيل له — « أمرك يا افندي » ، « كما تريد يا بك » . فوقع في دهشة وامتعاض. أتراهم يتهكمون به ، أم ان وراء الامر سراً ؟

— يا فائق افندي !

— نعم !

كان الذي يخاطبه واحداً من معاونيه ، فتى مشوش الهندام قليلاً ، لكنه غير رث الثياب ، قد طوق عنقه بربطة حمراء معقودة في غير مبالاة ، وقد فاحت منه رائحة حادة من سائل عطري رخيص . تقدم من فائق وقد وقف هذا الاخير وبيده دفتر وقلم رصاص .

— يا فائق افندي ، دخن سيكاره . ولكن تعال نبتعد قليلا كي لا نحدث حريقة قبل ان نتفاهم .

— «شكراً...» وأخذ منه اللفافة ، ومشيا مسافة . ثم اشعل فائق لفافته من قداحة المعاون وارسل بصره على فساحة البحر . ووقف المعاون بجانبه وقد اشعل هو ايضا سيكارة وقال له :

— أترى الى هؤلاء الحمالين مقوسة ظهورهم ، محنية رقابهم تحت الصناديق الخشبية ؟ مساكين ، يا للظلم القهار .

كان فائق يشمئز من الحمالين . يأنف من ثيابهم الخرقة المنسخة ، ومن الروائح التي تنبعث منهم ومن ابدانهم . وكان يثور حين يسمع لغتهم الفظة وشتائمهم الوقحة ، فقال للمعاون :

وما يعنيك منهم ؟

— الشركة تدوسهم بنعل من حديد . وامرهم يعنيني ، ويعنيك كذلك ما دمت انساناً ، ولا سيما انسانا مثقفا وشاعراً يحس آلام البشرية .

فأراد فائق ان يضحك لهذه النبرة الخطابية ، والروعة البيانية الملتمسة . لكنه اكتفى بابتسامة حامت حول شفتيه .

— لا تضحك يا فائق افندي. الشركة تدوسهم بنعل من حديد، وتدوسنا معهم . تستعبدهم وتستخدمنا بفتات المائدة . كم معاشك ؟ ثلاثون او خمس وثلاثون ليرة في الشهر ؟ أليس هو ذلك ؟ ومعـــاشي عشرون . فانظر كم معاشات الموظفين الاجانب . ثم فكر كم ملايين تغص بها كل سنة خزائن الشركة ربحاً صافيا لها .

— لست افهم قصدك ، اجابه فائق وقد لمعت في عينيه يقظة تنبه واهتمام ..

— قصدي ان اقول لك انك مغشوش .

— مغشوش ؟ ولمَ ؟

— اجل مغشوش . اتظن الشركة تستحق منك كل هذه الدقة والامانة . فانت ابداً واقف بالمرصاد ، لا تستقر عيناك في رأسك لشدة ما ترقب كل حركة في المستودعات ، ولا يستريح القلم في يمينك لشدة ما تقيد كل شاردة وواردة . أفحرام ان كسبت زيادة فوق معاشك الزهيد وتركتنا وتركت الحمالين يكسبون ؟

اتسعت عينا فائق من الدهشة ، وحدق مليا وعميقا في عيني مخاطبه .

— لا تستنكر قولي . ان صاحب هذه الوظيفة قبلك قد خرج بالوف الليرات ربحا خالصا له . ولم يكتشفوه إلا بعد سنة ونصف السنة . ثم لمـــا اكتشفوه مادا فعلوا به ؟ قالوا له : اذهب ، فانك معزول . فأدار لهم قفاه

« وكلاء الآداب »

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات
العراق : وكالة فرج الله للمطبوعات : محمود حلمي .
البحرين : المكتبة الوطنية لصاحبها ابراهيم محمد عبيد
الكويت : مكتبة الطلبة لصاحبها عبد الرحمن الخرجي
تونس : دار الكتب العربية الشرقية لصاحبها محمد خوجه
طنجه : مكتب الصاحب .
ليبيا : المكتبة الوطنية — بنغازي
مصر : دار الكشاف ٣٧ شارع عبد العزيز بالقاهرة
باريس : المكتبة الشرقية
15 Rue Monsieur - le - Prince — Paris

وذهب غانما سالما .

اراد فائق ان يقول للمعاون : لماذا لا تكون اكثر صراحة ؟ كيف استطاع ان يربح تلك الالوف كما تذكر ؟ ولكنه خشي ان يظنه المعاون قد رضي عن كلامه ، فلبث صامتا مزموم الشفتين ، فاستمر المعاون يقول

— هذه البراميل الحديدية الضخمة ، من يدري اذا اخرجنا من كل منها مائة صفيحة ، مثلا ، فبعناها للعملاء بسعر ادنى ؟ هذه الصناديق الخشبية المملوءة صفائح ، من يدري لو اخذنا منها خمسين صندوقا جئنا في عوضها بخمسين فيها صفائح فارغة ، وقلنا : انها تثقبت وسال ما فيها على الارض ... من يعلم لو دبرنا يوما تهريب نصف مستودع بكامله ، واضرمنا في بقيته النار ، ثم هرعنا نصيح : النجدة ، النجدة ، بعد ان توشك النار ان تأتي عليه برمته؟

فصعد الدم الى وجه فائق ، واحتقن واحمر ...

— هذه سرقة !

— الشركة تسرق ! وهز المعاون كتفيه وتحول عنه كالذي يهم بالانصراف وهو يقول له : شأنك . غير انه ما لبث ان انفتل نحوه ثانية وأعاد عليه الكرة : الشركة تسرق ... ثم بعد هنيهة من اطراق ، اردف يقول ، بصوت كالهمس ، تأكيداً لأهمية ما يقول : ولكن الشركة تسرق طمعاً في المال ، وفي إفقار العباد لأجل استعبادهم . أما نحن فاذا سرقنا ، ففي سبيل لقمة نأكلها ، بل في سبيل حق إسمي وغاية انبل ! هل تسمعني يا فائق افندي؟ وهنا زاد المعاون في تخفيض صوته زيادة في التأكيد لأهمية ما يقول : ان سرقتنا للشركة ضرب من الثأر من هذه المؤسسة الاستثمارية الممتصة لدم البشرية. فعملنا هو العدل بعينه ، من الناحية المبدئية ، فضلا عن انه تخريب للشركة يؤول من الناحية الفعلية الى ازالة عقبة تعترض تقدم البشرية . وان البشرية لتتقدم بخطى فسيحة ، ولها في هذا التقدم ركب صاعد وطليعة واعية جبارة ، على انها تحتاج بالطبع الى مؤازرة مني ومنك . ولا اكتمك ان قسماً من هذا الذي سنسرقه من الشركة سينتهي الى مؤازرة تلك الطليعة الواعية الجبارة التي ذكرتها لك ، والتي ارجو — اذا قبلت — ان اجمعك بممثل لها يبهرك ويملأ نفسك حماسة وإيماناً واقتناعاً بالغد القريب المشيد على الحرية والعدالة والسلم والسعادة ، وما شئت من اماني مقدسة بقيت مجرد احلام حتى حان موعد تحقيقها في هذا العصر على يد ذلك الركب الصاعد وتلك الطليعة الواعية التي سأجمعك باحد ممثليها .

ومسح المعاون بكفه على ربطته الحمراء ، وانصرف يمج في الهواء آخر رشفة من دخان عبها من سيكارته التي احترقت فرمى عقبها وسحقه بقدمه. أما فائق فبقي كالمسمر في مكانه، وقد تراكم الرماد على اللفافة في يده حتى طفئت. إلا انه لم يلبث ان صحا من ذهوله حين طرق سمعه صدى هذه الكلمات :

— أهلاً بمصلح البشرية ! وكانت هي كلمات وجهها معاون آخر الى المعاون صاحب الربطة الحمراء .

★

ومنذ ذلك اليوم تبدل فائق تبدلاً عميقاً ، انقلب انقلاباً ، اصبح الذي يقع عليه بصره يقرأ في ملامح وجهه انه مشغول ابداً بمهمة مأخوذ بصراع ناشب في دخيلة نفسه . وهو يجتهد في ان يصلب نفسه كالخشب ، فلا تتأثر بما ينتابها من الصراع ، ولكن الصراع كان في باطنها كالسوسة تتأكل الخشب .

أيتمالى على سرقة الشركة ام لا ؟

مرت به ايام وليال وهذا السؤال محفورة حروفه عريضة بارزة في لوح دماغه ، وقد ختمت بعلامة استفهام كبيرة محرقة .

أفيمكنه هو الشاعر المترفع العاطفة ان يتمالى على السرقة ، أياً كانت المبررات ؟

ولكن الشركة تسرق . لماذا تسرق الشركة ؟

اصبح فائق لا يشك البتة في هذه الحقيقة : ان الشركة تسرق . كلمة المعاون تلك كانت وخزة نبهته ، ومضة نور فتحت عينيه .

ها هو في غرفته قد خلا الى نفسه ، واستلقى على سريره يمج دخان لفافة إثر اخرى ، ويراقب سحب الدخان يشردها النسيم المنبعث من النافذة فلا يأذن لها بالانعقاد في جو الغرفة . صورة واحدة تلح عليه ويلتمس دفعها عنه بمراقبة ذلك الدخان يتصاعد وينتشر ويتبدد فوقه . على انه يخفق في دفع تلك الصورة ، وهي صورة الانابيب الطوال تمتد وتتلوى كالثعابين في احشاء ارض العرب . في مكان تراها تمتص جشعة نهمة ... تمتص الدم من عروق الارض العربية، ذلك الدم القاتم الذي سموه الذهب الاسود. وفي مكان آخر هي تقيئه متخمة من اجوافها فيحمله فراعنة المال على الامواج الى بلادهم .

دم ارضنا ، البترول ، علام يغصبوننا اياه ؟ بلا ثمن يأخذونه إلا تلك الحصص الهزيلة التي لا تساوي من الجمل اذنه ، كما يقال والتي يستولي عليها ملوك وامراء ووزراء ينفقونها نصيب الشيطان على سيارة يقتنونها لفخفخة فارغة ، او على شاعر يكذبهم ويكذب الفن ويكذب الله ، او على محظية يطرزون حذاءها المخملي بذهب يطعم يتيماً طول عام ، او يعين معلم مدرسة على تجديد بذلته قبل اربعة اعوام . دم ارضنا البترول ، علام يغصبوننا اياه بلا ثمن ، ثم يعيدونه الينا بابهظ الاثمان ، ولا سبيل لنا الا ان ندفع ، ندفع والرزق رزقنا . ألا إنما نحن العيس التي حكى عنها شاعرنا ، يقتلها الظمأ في البيداء والماء فوق ظهورها محمول !

الشركة تسرق . الآن صار لتلك الارقام المتكدسة التي اشتغل بجمعها وطرحها وضربها وقسمتها ، معنى في نفسه .

الشركة تسرق ... لكن قبل ان يتخذ قراراً ، علام لا يلبي دعوة معاونه ، مصلح البشرية ، (لقد استطرف هذا اللقب) فيجتمع بممثل ذلك الركب الصاعد ، او تلك الطليعة الواعية الجبارة التي سمع عنها من مصلح البشرية ما يقطع الحيرة وينفي اليأس ويوقد نبراس الأمل في النفس .

وإذا بفائق بعد يومين يوافق على سرقة الشركة ، ويغض النظر عن معاونه فيدبر الامر .

غير ان الشركة كانت الآن ساهرة العيون . السارق لا تسهل سرقته مرة بعد مرة . ثم رجال الشركة رائحة ما يطبخ لهم في السر ، فاستدعي فائق ومعاونه للاستنطاق ، فأنكر المعاون ان يكون له ايسر ضلع في السرقة ، في هذا الفعل الخسيس . وكيف يشترك في السرقة ، وهو المعروف بمبادئه الشريفة التي تهدف الى تحقيق العدالة والحرية والسلم والسعادة للبشرية . فأما فائق فهم بان يقول : ان سرقة الشركة حلال لأنها هي تسرق . إلا انه في اخر لحظة لجم لسانه وآثر الصمت . ففصل من وظيفته !

★

قالت له عمته في تلك الليلة : انك مغموم جداً يا فائق . لا بد ان يكون حدث امر ، فاصدقني الخبر .

والحق ان فائق كان يشعر بثقل عظيم من الغم يسحق نفسه . ذلك انه صدم بخيبة شديدة مرة من جراء هذا التصريح الذي فاه به معاونه لدى الاستنطاق . فقد كان يعلم حق العلم ان معاونه يكذب ، وانه يستحل سرقة الشركة باسم هذه العدالة والحرية والسلم والسعادة التي زعم لدى الاستنطاق انها جميعاً روادع تردعه عن السرقة . بل هو يذكر اوضح الذكر ان ذلك الممثل الذي اتاح له معاونه ان يجتمع به ، ممثل الركب الصاعد والطليعة

الواعية ، قد قال له في معرض اقناعه بوجوب سرقة الشركة : « الحكاية لا تتحمل هذا الغرام بالفضيلة». وكان يعني بالحكاية تحقيق الرسالة التي زعم انه نذر لها نفسه من تحرير البشرية واسعادها واشاعة السلم والعدالة في حياتها ، فكيف ينقلب المعاون على هذا المنطق الذي كان يعتصم به في الامس ، فيتكلم لدى الاستنطاق بنقيض ما كان يتكلم . وإذاً ، فتلك كانت حيلة لاستدراجه، وهو الفتى الساذج القليل الخبرة ، الى ارتكابه السرقة ! أجل ، تلك كانت خدعة لدفعه باسم المثل العليا التي يقدسها ، الى مستنقع وحل يغوص فيه .

وهنا سمع عمته ، ولاح له كأن صوتها قادم من بعيد، تكرر عليه القول:

— لا بد ان يكون حدث حادث يا فائق . فاصدقني الخبر .

فرد عليها، وكلماته لا تكاد تجاوز شفتيه حتى تتلاشى لضعفها وخفوتها :

— استغنوا عني في الشركة .

— والسبب ؟

فكر بماذا يجيبها . أيقول لها انه مالأ معاونيه على سرقة الشركة؟ ستصعقها الدهشة والخيبة اذاً ، وسينبغي له ان يشرح لهـا باي منطق استحل سرقة الشركة ، ولكنها لن تزداد إلا دهشة وخيبة . وعلى كل حـال هذا شيء يطول . فقرر ان يقول لها واذناه محمرتان كمن حرته الحمى : لا ادري ، لا ادري !

فصمتت ... هل صدقته عندما زعم لها ذلك ؟ لم يطمئن فائق الى ان عمته صدقته ، على سذاجتها . ولكنها تحاشت ان يبدر منها ما قد يجرح احساسه ، او يزيد في المه وانكساره. بل لقد اندفعت تعابثه وتطيب خاطره ، وتنطلق بالضحك فيحمر وجهها السمين وتحتقن عروق رقبتها ويعلو صدرها ويهبط مع امواج الضحك . فتسلى فائق ببعض الشيء . وحين ترك عمته ومضى يلتمس النوم ، قال في سره : ان المخلوقـات الطيبة امثال عمتي لتساعدنا حقاً على احتمال الحياة .

لم يكن فائق بحاجة ماسة الى المال . كان ابوه صاحب حانوت صغير يرد على العائلة ما تستطيع به مع حسن التدبير ان تسوي امورها . لكن برغم ذلك لم يكد يمر اسبوع حتى بات فائق يحس البطالة كانها حجر رحى مُعلق في عنقه . ان الذين يزعمون ان الانسان بطبيعته يؤثر الكسل ، وبالتـالي البطالة ، لكذابون او واهمون . ان الذين يدعون ان الانسان لا يسعى مجتهداً إلا وهو مسوق بحاجته المادية لجهلاء او أفاكون . فالانسان محب للعمل لأنه سبيل تعبير وافصاح عن الطاقة المخزونة فيه ، عن قوة الخلق والابداع الكامنة في استطاعته . وهو يكره البطالة لأنهـا تعطل فيه طاقته ، وقوته الخالقة المبدعة . والانسان ابن المجتمع يشعر ان مجتمعه كافر بحقه اذا حرمه العمل . يشعر انه منبوذ لا يرى فيه الناس كفاءة ما يمكن الانتفاع بها . أجل ، يشعر حقاً بما تشعر به قشرة بصل يقذف بها من شباك المطبخ ، لو كانت هذه تشعر !

كان لدى فائق نحو من مائة ليرة لبنانية سورية عندما فصل من وظيفته ، فأعانته على الفرار من الافكار السوداء التي اخذت تعشش في زوايا نفسه مع امتداد البطالة كما تعشش العناكب في السقوف المهملة . وأي افكار سوداء طفقت تملأ نفس فائق الشاعرة ؟ وأي تصورات كالحة اغرقت فيها مخيلته الحادة؟ رأى يوماً رسماً في مجلة عند احد اصدقائه ، تمثل فتى نحيفـاً تتقبض ملامح وجهه وينتفض جبينه بنوبة من ألم ناهش ، وقـد حمل الفتى رأسه بين يديه منكباً فوق مائدة ، ومن وراء كتفيه شبح ، شبح قاتم مبهم لم تتوضح منه الا كف بأصابع معقفة كمخالب هُيئت للانشاب ! فدس الرسم في جيبه وقال: هو والله انا ! الشبح ابداً من ورائي ومن لي بان أفر منه ؟

الى اين ؟ كان فائق قد تعرف الشراب وهو ما يزال في الوظيفـة . فوجده منعشاً مرفهاً . فأمل الآن من الشراب ان يغرق افكاره السوداء ، ويجلو تصوراته. أمل منه ان يصرف عنه ذلك الشبح او يذهله عنه بالسكر . فبات ملازماً للخمارات لا يخرج من واحدة حتى يعدل الى اخرى،وتوطدت بينه وبين العرق صداقة حميمة . احتجت عمته احتجاجاً صامتاً بدموعها اول الامر ، ثم احتجاجاً صارخاً بشهقاتها ، وعاتبه ابوه برفق ثم انتهره بعنف . وسعى اكثر من عرفوه ان يحولوا بينه وبين المخدر الذي يسرع فيه ، إلا انه لم يأبه لأحد .

انتحار ! انتحار لا بالحبل ولا الخنجر ولا السم الزعاف ، بل بهذا السائل الذي تسطع رائحتـه حادة في خياشيمـه ، ويبيض باسماً مغرياً عندما يمازجه الماء ، وينسكب في الحلق لاذعاً عذباً يستعبد صاحبه استعباداً في مقابل ما يهب له من نشوة هي نشوة الانحلال والانجذاب .

مضى فائق شوطاً بعيداً في انحداره . وهو يرى نهاية المنحدر : القبر . والقبر ليس فائق وحده سائراً اليه . قد يصله هو قبل غيره ، ولكن الجميع واصلون لا محالة ان عاجلا او آجلا . وفي اعماق القبر تلك الراحة الابدية التي تلف المتعبين . ولشد ما كان فائق مولعاً بان يجمل لحماقته هذه اسماً رناناً فيقول : هي فلسفتي الخاصة .

على انه كان لا يعدم ساعات من صحو تعترضه فيها المرآة فيطالع وجهه الاصفر البليد ، وعينيه اللتين خبا بريقهما وران عليهما الغباء ، وأحـاط بهما اطار اسود علامة العياء والتضعضع ، فيدرك انه مشرف على نهاية المنحدر ، وان القبر بعيد عن ان يكون جميلاً كما خيل له . فتدب فيه ارتعاشة رعب . عند هذا الحد يجب ان يقف ! علام يجعل من شبابه مومياء مخيفة ؟ لا حق له بعد اليوم ان يخطو خطوة اخرى في المنحدر .

إلا انه بات اشبه بالحيوان المسخر ، كلما هم بالوقوف نخسه مـن ورائه ناخس وصاح به : هيا ... فقد الارادة ، فاذا شاء ان يمسك عن الانحدار بعد اليوم ، فلا بد من ان يكون بجانبه من يمسكه .

ليلة شرب فائق فأسرف في الشرب من هذا السائل الابيض . قعد وحيده الى مائدة صغيرة في زاوية من احـدى الخمارات الرخيصة التي ألف التردد اليها ، لا يصنع شيئاً إلا اشعال لفافة اثر لفافة من التبغ الرخيف ، وتمزز كأس بعد اخرى ، واطلاق كحة جافة يهتز لها جسمه كأن الارض من تحته تضطرب في زلزال .

بلى ، كان يخرج من جيبه ذلك الرسم الذي يمثل الفتى المتقبض الوجه ، الحامل رأسه بين يديه منكباً على المائدة وفوقه مخالب الشبح القاتم الغامض . كان يخرج الرسم بين هنيهة واخرى ، فيستغرق في تأمله طويلا ... واذا به يحس،وهو يتأمل الرسم للمرة التاسعة او العاشرة يداً تلقى على كتفه وتضغطه شيئاً . فاقشعر وتلفت بحركة عصبية ، يتوقع ان يرى الشبح القاتم الغامض قد ظهر فوقه حقاً . غير انه رأى ربطة حمراء ووجه « مصلح البشرية » . فحول عنه وجهه لا يريد ان يكلمه . الا انه ما لبث ان سمع معـاونه بالامس يقول له :

— وأي شيء يعجبك في هذا الرسم الكريه ؟

فاجابه فائق وهو يغتصب الكلام اغتصابا ويرجو ان لا يطول الحديث :

— انه يمثلني حق التمثيل .

— ولكن هذا اعلان عن حبوب يداوى بها المعذبون بالأمساك وعسر الهضم . فهل انت مصاب بطرف من هذه العلة ؟

— ربمـا !

– بل علتك شيء آخر يا صاحبي . نحن ادرى بهؤلاء المثقفين الذين تفسد عليهم حياتهم عقدهم النفسية ، ويجعلون من كل تفاهة سبباً لأزمة تتخبط بهـا ضمائرهم.هل تجوز السرقة ولو في سبيل قصد شريف ؟ هل تجوز سرقة السارق؟ (كما فعلنا نحن حين سرقنا الشركة) . هل يجوز الكذب ؟ (كما كذبت انا حين تنصلت من السرقة) وهل ؟ وهل ؟ اسئلة ما تنتهي ، تتأكل نفسك كالسرطان. اذكر ما قيل لك : «ان الحكاية لا تتحمل هذا الغرام بالفضيلة».

فجأة انتصب فائق وصاح بمعاونه بالأمس : اذهب ، اذهب ، او اقتلك او تقتلني ! وانقدح من عينيه شرار شرس .

فأقبل نحوهما صاحب الخمارة يريد تدارك الشر . الا ان «مصلح البشرية» اسرع فانكفأ نحو البـاب وهو يقول لفائق ، يلتمس استفزازه وتحقيره امام نفسه :

– ثلاثون ليرة،معاشك الذي خسرته في الشهر،لا يسوى هذه الثورة كلها.

وكان صاحب الخمارة قد بلغ الى فائق فقال له :

– لعن الله القمار يا صاحبي !

فأفرغ فائق كأسه دفعة ، وقال لصاحب الخمارة : « كأساً اخرى » ، وهو لا يدري أيضحك ام يزداد غيظاً لهذا التفسير الذي فسر به صـاحب الخمارة سخطه وثورته .

ثم أحس بالمكان يضيق عليه ضيقاً خانقاً ، ففكر في ان يعقب ليلته زيارة احدى بائعات الاجساد . واستيقظت فيه شهوة ان يشبع خياشيمه من رائحة لحم انثى تفصد عرقاً في ليلة قائظة .

ولكنه ما لبث ان ذهل عن كل شيء حتى لفافة التبغ بين اصبعيه ، وكأس العرق امامه ، ورسم الفتى ووراءه الشبح . ومن العجيب ان يكون قد ترك هذا الرسم يسقط ارضاً ، فيدوسه على غير انتباه .. ثم هز برأسه قليلاً ذات اليمين وذات الشمال ، قبل ان اكب على المائدة وغرق في نوم عمقه السكر الى غير ما قرار .

ايقظه خادم الخمارة فتلجلج لسانه بكلمات لم يفهم منها حرفاً ، فتركه يسترسل في نومه ... هذه الساعة الحادية عشرة والناس قد انصرفوا او هم يهمون بالانصراف ، وهو ما زال نائماً .

– ماذا اصنع به ؟ قال الخادم لمعلمه صاحب الخمارة .

– فتش في جيوبه . خذ منه ثمن الكؤوس التي شربها ، ثم اقتده برفق الى الباب أو احمله حملا وضعه على الرصيف . ان له البوليس فلا بأس ، وان تركه ينام هناك فلا بأس ايضاً .

فسمع ذلك شاب كان قد عرج على الحانة منذ لحظة ، يريـد ان يرطب حلقه غب عمل طويل مرهق امتد حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل . واذا بالشاب يرافق الخادم بعينيه وهو يمشي نحو فائق ، حتى اذا اخذ يهزه هزاً عنيفاً ويدس يده في جيوبه ، نهض اليه فقال له :

– خل عنه ، كم تطلب منه ؟... وأدى الشاب الحساب ، ثم طفق يعالج فائق حتى اقامه على رجليه نصف نائم ، وسار به خطوة خطوة .

وصحا فائق في الصبـاح فاستغرب المكان حوله . فظن على عينيه غشاوة ففركهما فركاً شديداً . فوجد المكان لا يزال غريباً عليه . وابصر في جانب من الغرفة شاباً ما يزال مغمض العينين . فأخذ يكد ذهنه عساه يذكر شيئاً او لعله يستجلي جانباً من الموقف الذي هو فيه ، فلم يجد الى ذلك سبيلا ... وفتح الشاب عينيه وحياه تحية الصباح . ثم وثب من فراشه يروض جسمه . فتعجب فائق من عافيته وحيويته . وفطن الى انه هو لا يكاد يقدر عـلى الخروج من فراشه ، كأن مفاصله قد فككت ، فينبغي له ان يشد بعضها الى بعض قبل ان يستطيع الحركة . فأوشكت دمعة ان تسرح على خده . ثم اقبل عليه الشاب ، فأخذ يحدثه اين صادفه الليلة الماضية،وفي اي حالة وجده ، وكيف اتى به الى غرفته . ولم يذكر له انه كان قد شاهده من قبل في تلك الخمارة ، وراقبه ، فأسس ان حياته تنطوي على مأساة . وتعارف الشابان بالأسماء : فائق ومسعود .

ومنذ اليوم الذي تعارفا فيه شعر فائق ان مسعود هو الذي سيقف بجانبه، فيمسكه عن متابعة انحداره الى درك الهوة السحيقة التي بات مقرراً ان يصير اليها . وعظمت ثقته به ، كما تعظم ثقة الطفل الشقيق الذي يدربه على المشي دون ان يدفع به للسقوط .

وفي ليلة تحول الحديث بينهما عن مسالكه المطروقة الى شعب لم يدخلا فيها من قبل . وكانت نقطة الابتداء في هذا التحول ان فائق اعلن سخطه على هذه البطالة التي ما زالت ترهقه بثقلها . فقال له مسعود :

– الى ان نبني العدالة الاجتماعية ستظل البطالة ترهق المواطنين ، وبالتالي سيبقى محتاجون لا يجدون ما يحيون به الحيـاة الكريمة اللائقة ، وسيبقى منعمون يجدون ما يجاوزون به حدود الحياة الكريمة اللائقة الى البطر والفحش.

فارتسمت على محيا فائق سحابة من الوجوم حين سمع ذكر العدالـة الاجتماعية . ووثب به الذهن الى تلك الحرية والسلم والسعادة التي سمع حديثها من معاونه بالأمس: مصلح البشرية وصاحب الربطة الحمراء ، وذلك الآخر : ممثل الركب الصاعد والطليعة الواعية الجبارة . واستيقظت في نفسه اصداء ما ذكرا له من ان الحكاية لا تتحمل هذا الغرام بالفضيلة، وان سرقة الشركة حلال ، وانه هو مجرد مثقف – يا للتهمة ! – يجعل من الحادثة التافهة عقدة نفسية يتخبط فيها الى الابد .

ولحظ مسعود وجومه فقال له :

– اتراني قلت شيئاً ضايقك ؟

فأجابه فائق : عفواً ، ان ذكرك للعدالة الاجتماعيـة ذكرني اشخاصاً صادفتهم فلم اكن سعيداً بالمصادفة .

– ولماذا لا تزيدني تصريحاً ؟

– كان اولئك يكثرون من ذكر العدالة الاجتماعية وغيرها من الالفاظ المشوقة . ولقد صدقت دعواهم وانجررت بمنطقهم الى تجربة كانت بالنسبة لي مأساة قاتلة ، لولا ان لقيتك.وها انت تعود فتردد على مسمعي احدى الفاظهم التي كانت فخاً وقعت فيه . على اني لا اكتمك ان تلك الالفاظ المشوقة كانت احيانا تبدو لي في افواههم كالفاظ الفضيلة والشرف في افواه البغايا يحاولن ان ينسجن منهـا ستراً لقبح صنيعهن . غير اني كلما شعرت هذا الشعور كنت اتهم نفسي ..

– وهكذا رضيت الالفاظ وحدها ان تكون سبيلك الى حقائق الاشياء والاشخاص ! على انك لو زدتني تصريحا لأمكننا ان نجعل حديثنـا اوفر نصيبا من الدقة ... وحدق مسعود في عينيه ملحاً عليه ان يصرح له بما ظل يلمح اليه حتى الساعة تلميحا من بعد .

فأطرق فائق مليا ، ثم انطلق يحدثه كيف عمل موظفا في شركة البترول وكيف قبل ان تسرق الشركة ، وباي منطق اقنعه معاونه مصلح البشرية والآخر ممثل الركب الصاعد ، ثم كيف تنصل معاونه من السرقة بعد ان كشفت ، ثم كيف حاول تصغيره امام نفسه بنعته انه مثقف شأنه ان يقضي ايامه مرتبكاً في حل عقده النفسية السخيفة ..

فابتسم مسعود ابتسامة من يدرك الوجه في وجود الآلام والمذاجـات والاكاذيب والدناءات في هذا العالم . ثم قال لفائق :

– سيطول حديثنا فلا ينتهي الليلة . الا اني اقول لك اننـا لا نسرق الشركة ولا غيرها ، لا لأن الشركة على حق ، او لأننا نجهل انها تنهب

وحدي مع المنفى

الى امي الغاربة الى الأبد ...

وتطوفُ بي الذكرى اليكِ ، إليك والطفل الحزينْ ،
وسؤاله الملتاع : أين ابي ؟ أيرجعُ ؟ هل أراه ؟
ـ لِمَ لا ؟ ستنعم بالهدايا ، بعد حينٍ ، أو لقاه ؟
ويروح يرتقب المآب الحلو ، مشبوب الحنين ،
وأنا هنا خلف المفاوز ، والجبال ،
وحدي مع المنفى ورعيان القطيع ، وخفق آل
والشمس تكره ان يغطّيها السحاب ،
ويغيب عنّا نورها الذهبي ، والدفءُ المضاع
خلف الغيوم السود ـ لا كانت ـ ويخنقنا الضباب ،
وهناك قريتنا الكئيبة ، والخرائب ، والقبور
والطلل ، والدفء المضاع ،
ومغاور الأفيون ، والمقهى ، واغنية تدور .

★

وأبي يقبّل طفلي الباكي ، ويحلم ان اعود ،
والأم كالثكلى ، تئنّ وقلبها عبر المفاوز والجبال
وندائها الواهي سُدىً يعلو « تعال .. »
فأنا هنا خلف الصحارى والسدود ،
وحدي مع المنفى ، ورعيان القطيع ،
السحب تهرب ، أو تذوبها ذكاء ،
وطحالب الصحراء ، والاعشاب ، تشمل بالضياء
ونداء أمي لا يزال يرنّ في أذني : « تعال ...
« الشمسُ عادت والربيع
والزهر عاد مع الفراش ، مع الطيور ،
وصديق طفلك كم يلاعبه أبوه بلا ملال
بين المزراع والحشائش ، والزهور
و « رجاءُ » يسأل أين أين أبي ؟ ألم يحن المآب ؟
وتلوح في عينيه بارقة الدموع ،
وأنا وصحبي المبعدون هناك ، مثلي يرقبون
أنا سنرجع رغم أغلال المنافي والجبال
كالشمس تسخر بالغيومِ وبالضباب ،

★

ومدينة الأفيون ، لم تبرح على الأحلام تغفو والمنون ،
ونداء أمي لا يزال يرنّ في اذني : تعال !

★

جامعة هارفرد ـ الولايات المتحدة

صالح جواد الطعمة

الوطن وتمتص دم العمال ، بل لأننا نحن اذا سرقنا الشركة عودنا انفسنا اللصوصية ، وبذلك بتنا لا نصلح لبناء نظـام لا سرقة فيه ، قائم على العدالة والحرية والسعادة والسلم للجميع . انك لا تستطيع ان تشيد بيتا نظيفا بمواد قذرة ... ونحن لا نحاول ان نهزأ بالضمائر التي تنشب فيهـا الازمات نتيجة للتفكير في ما يعد حقا وما يعد باطلا . الألة الغبية والحيوان الغبي وحدهما قد اعفيا من مثل هذه الازمات ...

★

واليوم بعد هذا الوقت الطويل الذي انقضى على تلك المأساة ، اصبح فائق هو غير فائق الذي عرفته خمارات بيروت وكأنه هو ذلك الفتى الذي كان يحمل رسمه في جيبه والذي كان يظلله شبح قاتم مبهم يهم بانشاب مخالبه فيه. لقد تجدد فائق . حوّل خطاه عن المنحدر الذي كان يسرع فيه، ووجه وجهـه الى الحياة . ولقد ازهرت شاعريته في هذا الجو المضيء الدافيء . اما قصيدته لفتاة الجيران فانه أتم نظمها منذ زمن بعيد ، ومع ذلك فوجهه يلونه احمرار خفيف كلما طلب اليه ان ينشدها لأن الفتاة اصبحت زوجته . ولقد اثمر حبهما ما هو خير من قصيدته على رقتها وجمالها . اثمر فتيين ناميين يشير اليهما فائق باعتزاز ويقول : جنديان مـن جنود الاشتراكية ... الاشتراكية الحرة ، الشريفة بغايتها وبطريقها الى الغاية !

رئيف خوري